أندريه جيد

لعل الأدب الفرنسى عامة لم يشهد بين رجاله أديباً تلهفت الشبيبة المثقفة من الجنسين فى أنحاء العالم المتمدن على مؤلفاته مثل الكاتب الفذ أندريه جيد . فهذا الأديب الشيخ ، الذى بلغ الآن الثمانين من عمره ولا يزال شاب القلب والذهن ، يتزعم منذ عشرات السنين مدرسة (التحرر الأخلاقى) Immoralisme فى الأدب الفرنسى الحديث ويعالج بمؤلفاته التجديدية العديدة مشاكل الشباب النفسية والنزعات الجامحة المتقلبة التى تلازمه بصراحة جريئة وحرية لا حد لها حتى نفر الشيوخ التقليديون من الكاتب الشيخ واحتفظ الشباب بالولاء له وتمجيده والتهام أدبه .

لقد اقتحم جيد ميدان الأدب منذ أكثر من نصف قرن ، وكانت نزعته التجديدية منذ كتابه الأول تضم نفس الإخلاص والحرارة والإيمان بوجهة نظره التى تضمها أحدث كتبه عهداً . ذلك أن جيد بدأ حياته الفكرية راسخ الثقافة ، وكانت العوامل المتضاربة التى تضافرت فى تكوين تفكيره من القوة وعنف التأثير بحيث طبعت شخصيته ولون أدبه بذلك الطابع الذى عرف به والذى لم يتحول عنه رغم امتداد السنين وهجمات المهاجمين .

ولقد كان فن جيد ميداناً خصباً لتحليل النقاد ودراستهم فى

عشرات الكتب بمختلف اللغات ، وهذه الدراسات إن اختلفت إحداها عن الأخرى من بعض الوجوه فهى تتفق جميعاً فى عمق تأثير تفكير چيد وفلسفته على نفسية الجيل الذى خلف الحرب العالمية الأولى ، ذلك الجيل الذى صهرته المحن والكوارث فخرج منها فاتحا صدره لاستقبال كل رأى ، مستعدا للخروج على كل قديم والتعلق بكل فكر جديد يحطم أغلاله ويحرر نشاطه فى الاجتماع والفن والأخلاق على السواء .

* * *

فى دراسة تحليلية لفن أندريه چيد كتبها الناقد الفرنسى الكبير بنچامان كريميو نراه يبدأ بقوله (إن أول نظرة إلى أندريه چيد تبين لنا أنه مخلوق مضطرب قلق معقد يتركب من عدة شخصيات، ولكنه يمت إلى نوع نادر من البشر . . . . ثم لا تلبث أن ندرك أن فنه صورة منه) .

والواقع أن فن أندريه چيد وفلسفته هما قبل كل شىء صدى لمشكلة نفسه ومأساة حياته . فقد نشأ چيد فى أسرة دينية متقشفة، من أب پروتستنتى وأم كاثوليكية . وربى چيد تربية دينية خالصة ، فكانت هذه التربية وتناقضها مع طبيعته أولا ومع الظروف التى صادفت شبابه ثانيا سببا قاسيا فى أن تجعل من حياته مأساة إنسانية كبرى ، وأن تجعل شخصيته فريسة لحرب شعواء بين چيد المتدين

بولادته وأسرته وتربيته ، وچيد المتحرر من سيطرة الدين بعقله وإرادته .

عندما بلغ چيد سن الشباب استيقظت نفسه على أشعار الجيل الأول من المدرسة الرمزية فى الشعر الفرنسى تحت زعامة ڤرلين ورامبو وملارميه ، وكان عهد ازدهار هذا الجيل قد آذن بالمغيب وخلفه الجيل الثانى الذى من أعضائه فرنسيس چيمس وپول كلوديل وپول فور ، فانضم إليهم أندريه چيد ، إذ وجد فى الشعر الرمزى الحالم السابح فى أجواء الخيال ، المتحرر حتى من القيود الشعرية نفسها ، سبيلا إلى الانطلاق من عالمه الدينى المحدد الآفاق . ولم يكن تأثر چيد بالشعراء الرمزيين قاصراً على فنهم فحسب ، بل كان يجد فى حياة الكثير منهم مثل ڤرلين ورامبو مثلا أعلى لحياة الفنان الذى يريد أن يصل إلى فهم الحياة مهما كلفه ذلك من الثورة على كل تقليد ، والخروج على كل عرف أخلاقى . على أن رمزية أندريه چيد لم تبلغ فى تحكم العاطفة بها ما بلغته رمزية الجيل الأول ، فهو أقل حدة فى العاطفة وجموحاً فى الخيال ، وهو أمرّ سخرية وأعمق تفكيراً وأشد رغبة فى إدراك حقيقة نفسه وأعظم انطلاقاً وتعلقاً بالحياة المرحة . وفى أول كتبه (دفاتر أندريه والتر) Les cahiers d' André Walter (١٨٩١) نراه يعبر عن ذلك بقوله (يجب النظر إلى الحياة بعين شاملة وطبيعة طلقة

مع الاحتفاظ بالنفس المتيقظة) .

وفى ذلك الوقت أيضاً — وقت شباب چيد — غزت فرنسا أفكار الفيلسوف الألمانى (نيتشه) والكاتب الأيرلندى (أوسكار وايلد) فتأثر بهما أندريه چيد تأثراً عظيما . أخذ عن الأول فكرته عن (السپرمان) وعن الثانى فكرته عن سيادة الفن وحق الفنان فى أن يحيا على هامش العادات الأخلاقية المرعية ، والإثنان — چيد ووايلد — يتفقان فى إيمانهما بفكرة الجمال عند الأثينيين القدماء .

كذلك تأثر چيد بفكرة الكاتب الفرنسى موريس باريس Barrès عن (تقديس النفس) Le culte du moi وأخذ عنه سخريته العالية .

وأخيراً يجىء دور الكاتب الروسى (دوستويڤسكى) ، فكما أن نيتشه ووايلد كانا أعظم أثر فى چيد الشاب ، كان دوستويفسكى أعظم أثر فى چيد الرجل .

من ذلك نرى أن چيد قد تأثر بكل الآراء المتطرفة المعاصرة له ، أليس هو القائل (أن كل ماهو متطرف يؤثر فىّ)؟ لقد تأثر بالشعراء الرمزيين الفرنسيين ، وبأوسكار وايلد الأيرلندى ، ونيتشه الألمانى ، ودوستويڤسكى الروسى . لذا كان أدبه كلاسيكى النزعة . على أن چيـــد ، على رغم كلاسيكيته ، بعيد كل البعد عن

العبودية لمن تأثر بهم ، فشخصيته القوية المستقلة تنبض بها أعماله كلها بشكل قوى مؤثر . ذلك أن طبيعته الثائرة القلقة وجهده الصارخ فى التحرر يجعلانه يجرى وراء الثقافة الواسعة التى لا تعرف التمييز بين كاتب وآخر (وأنا — كما يقول — أنتظر دائماً شيئاً أجهله ، أنتظر ضروباً جديدة من الفن وأفكاراً جديدة) . ولقد قادته رغبته الحارة فى المعرفة الشاملة إلى دراسة اللغات الأجنبية كى يقرأ أعمال من يعجب بهم بلغاتهم الأصلية .

* * *

كانت أعمال أندريه جيد الأولى (دفاتر أندريه والتر) Les cahiers d'Anré Walter (١٨٩١) و (معاهدة نارسيس) Traité du Narcisse (١٨٩٢) و (رحلة أوريان) Le voyage d'Urien (١٨٩٣) عبارة عن اعترافات تتضمن نزعات جيد الفكرية التى أراد بها التحرر دائماً من حياته الطاهرة المتقشفة . ففى أول أعماله يقول (الحياة المطلقة ، تلك هى أسمى حياة ، سوف لا أستبدل بها غيرها مطلقاً . لقد ذقت من هذه الحياة ضروباً كثيرة ، على أن الحياة الحقيقية كانت أقصرها) .

وفى هذه الأعمال الثلاثة الأولى يلمح القارىء بين سطورها ميولا جامحة خفية يحاول جيد أن يحجم عن التصريح بها .

على أن هذه الحرية التى يبيحها جيد لنفسه دون قيد لا تلبث

أن يطغى عليها أحياناً أحساسه الدينى فيقول فى نفس كتابه الأول:
(أننى أتمنى وأنا الآن فى الحادية والعشرين من عمرى ، وهى السن التى تنطلق فيها من عقالها الشهوات ، أن أقمعها بالعمل المضنى اللذيذ . إننى أود فى الوقت الذى يجرى فيه الآخرون وراء ملذاتهم أن أذوق اللذات الخشنة التى تلازم حياة الصومعة) .

وفى (الأغذية الأرضية) Les nourritures Terrestres (١٨٩٧) نرى چيد يبلغ انطلاقه الكلى من حيث الدعوة إلى أن المعرفة لا تأتى عن طريق الفكر بل عن طريق الحس . من ذلك قوله: (أنك لا تستطيع أن تقدر المجهود الذى كان لزاماً علينا بذله لكى نحس أحساساً صادقاً بالحياة ، والآن وقد تحقق ذلك فهو كالحال مع كل شىء آخر ، عن طريق الحس والشهوة) وكقوله أيضاً (لقد تسكعت هنا وهناك كى أستطيع أن ألمس كل من يتسكع . إن قلبى ليفيض بالحنان والحنين إلى كل من لا يعرف مكان دفئه ، وأحب حباً مفرطاً كل من يهيم بالتجوال والتصعلك)

ثم انظر كيف لا يستطيع الفرار فى هذا الكتاب أيضاً من أحساسه الدينى حين يقول (كنت أقرأ « عقيدة العلم » لـ « فيخت » فشعرت بأننى سأعود متديناً من جديد) .

وفى قصة (المتحرر من الأخلاق) L'immoraliste (١٩٠٢) نرى عبقرية چيد وتأثره العميق بالفيلسوف نيتشه قد تعاونا على

إظهار فكرة (التحرر الأخلاقى) حيث نرى بطل القصة «ميشيل» — وهو شاب مريض — يتقدم نحو الشفاء كلما حرر نفسه من الأوضاع الأخلاقية التقليدية .

وفى (الباب الضيق) La porte étroite (١٩٠٩)و(إيزابيل) Isabelle (١٩١١)و(السامفونيا الريفية)La symphonie pastorale (١٩٢٠) نرى جيد — وخصوصاً فى القصة الأولى — يعالج شخصيات تخالف تماماً فى تفكيرها ونزعتها ما نراه من الأفكار والنزعات فى الأعمال الأولى ، ذلك أن الأولى استسلام مطلق لنداء الحرية الحسية، أما الثانية فهى استسلام مطلق لنداء العاطفة الدينية. فبينما نرى « ميشيل » فى قصة (المتحرر من الأخلاق) ذلك الثائر على نظام الأسرة ، الهاجر لماله وزوجته ، المتمرد على الراحة والاستقرار ، الراغب فى الرحيل إلى أبعد مكان ، الواجد فى الحرية الجسدية والانطلاق الحسى شفاءه العاجل، نرى من جهة أخرى «أليسا» فى قصة (الباب الضيق)، تلك الفتاة الوادعة المتقشفة التى تغمرها العاطفة الدينية حتى تدفعها إلى رفض الزواج من ابن عمها «جيروم» الذى تحبه لكى تقصر نفسها على الاستسلام لإحساساتها الدينية، وتقترب من الله الذى تسميه (الأحسن) Le meilleur .

ولا شك أن القصصى العبقرى هو الذى يرسم لنا بين حين وآخر صورا إنسانية متباينة تختلف كل الاختلاف عن شخصية

راسمها . فعبقرية القصصى تسمو كلما استطاع التجرد من كل مؤثر ذاتى وهذا هو ما نراه فى قصتى (سيرافيتس سيرافيتا) و (أوجينى جراندیه) للقصصى العظيم بلزاك ، والقصتان تقتربان من حيث تناقض نفسية الشخصيات من قصتى جيد (المتحرر من الأخلاق) و (الباب الضيق) ، على أن الفرق بين بلزاك وجيد من هذه الناحية أن بلزاك فى قصتيه يرسم لنا شخصيات خارجة عن نفسه ، أما جيد فكل شخصية من شخصيات قصصه عبارة عن فكرة متحركة من أفكاره . ففى قصتيه السابقتين نراه يختفى وراء شخصيتى « ميشيل » و « أليسا » ، فشخصية « أليسا » هى صدى حياة جيد الطفل الذى نشأ بين أعطاف الدين فطبع حياته كلها بطابع لم يحد جيد وهو رجل سبيلا إلى التخلص منه ، وشخصية « ميشيل » هى شخصية جيد الشاب المفكر الذى نظر حوله فوجد أن حياة الزهد الماضية قد حرمته كل متع الحياة فلم يجد وسيلة إلى التحرر من تراث ماضيه وتعويض ما فقده من العمر فى أحضان الزهد والحرمان إلا بأنكار كل قاعدة أخلاقية واستغلال كل دقيقة للتمتع بكل لذة مستطاعة .

وقد يلام جيد ويتهم فنه القصصى بالنقص لأنه اختفى وراء كل شخصياته ولم يرسم لنا صورا إنسانية خارجة عن نفسه ، شأن القصصيين العباقرة . والواقع أن جيد ليس له من النبوغ القصصى نصيب عظيم ، وإنما عبقريته الحقة هى فى تلك الدعوة الحارة إلى

(سيادة الحياة) ، وفى ذلك البحث المتواصل فى سبيل فهم نفسه والنفس الأنسانية، وفى ذلك الاحتمال الباسل لهذا الكفاح العنيف داخل نفسه بين تربيته وبين تفكيره ، بين العاطفة الدينية وبين التحرر الأخلاقى ، ثم أخيرا فى محاولته الجريئة للتوفيق بينهما كما سنرى . ذلك كله هو الذى يعطى فن أندرية جيدلونا تجديديا وضاء ويعطى كتبه ذيوعا قل أن نصادفه فى كتب أعاظم الكتاب المعاصرين. أليس هذا الفن — كما يقول الناقد أندريه بيي — هو خير تعبير عن اضطراب العصر الذى نعيش فيـــه ؟ إن فى كل صفحة من صفحاته تجد النفوس القلقة الجامحة مجالا لا مثيل له لراحتها النفسية فأندريه جيد يكتب — كما يقول — (حتى يجد كل مرافق يصبح فيما بعد مماثلا لى وأنا فى السادسة عشرة من عمرى — ولكنه يكون أكثر منى شجاعة وحرية وأعظم كمالا — جوابا لسؤاله المرتجف) فما هو هذا الجواب ؟

يرى أندريه جيد — ويتفق معه فى ذلك مارسيل بروست وبيراند للو — أن الشخصية الإنسانية ماهى إلا وهم زائف ،وأن الإنسان صنيعة الظروف والاحتمالات .

ومهما يكن مقدار ما فى هذا الرأى من الحق أو الباطل فقد كان له الفضل الأول فى تجديد القصة الأوروبية لما تضمنه من تحطيم فكرة (الأخلاق الثابتة) و (النماذج الإنسانية) التى

كانت أساس القصة التحليلية فى الأدب الغربى ليقيم على أنقاضها أسس فكرة (اللاشعور) قبل العالم (فرويد) نفسه . كما أن هذا الرأى قد كشف الأثر العظيم للغرائز الجنسية وعدم توازن العواطف فى حياة الأشخاص، متأثرا فى ذلك بقصص الكاتب الروسى الخالد دوستويفسكى .

على أن مايمتاز به أندريه جيد عن مارسيل بروست وبيراندللو أنه لا يكتفى بالنظر إلى الأمور نظرة العالم النفسى ، بل إنه يخرج من دراسته (بقاعدة) يرى من الواجب السير عليها فى الحياة ، تلك القاعدة هى وجوب أن يسعى الإنسان إلى فهم طبيعته وإدراك حقيقة نفسه بنفسه ، وما ذلك إلا بالخضوع لكل الدوافع المتنوعة مهما كانت ، والتذرع بالشجاعة لتحقيق كل ما يجيش فيه من الرغبات دون اختيار ، أى دون أن يقول الانسان لنفسه: هذا متفق مع التقاليد الأخلاقية وهـــذا مغاير لها ، هذا يمس الدين وهذا لا يمسه . . الخ . يجب أن يكون كل منا — كما يقول جيد — (كطفل ضال ، وجد دون أن تعرف حالته المدنية ، دون أوراق . . . قذفه المجهول ، لا يعرف له ماضيا ولا قاعدة يسير عليها ولا سنداً يعينه ، لا وطن له ولا أجداد) .

إن هذه هى الوسيلة الوحيدة عند جيد لانكشاف حقيقة نفوسنا أمام أعيننا ، وعندئذ نسير على هدى طبيعتنا .

وفى قصته (مزيفو النقود) Les faux-monnayeurs (١٩٢٥) نرى الفتى « برنار » يخاطب القصصى « إدوار » ويسأله النصح كيف يضع قاعدة لحياته ، فيجيبه « إدوار » قائلا : (إن هذه القاعدة تجدها فى نفسك على أن يكون قصدك السير إلى التقدم . ليس عندى ما أقوله لك . إنك لا تستطيع أن تستمد هذه النصيحة إلا من نفسك . فلا تحاول أن تتعلم كيف تعيش إلا بأن تعيش) .

ولكى نعيش — فى نظر جيد — عيشة لا يقيدها قيد يجب ألا نتردد عند الحاجة فى الثورة على نظام الأسرة والجرى وراء أحساساتنا تقودنا إلى حيث الحقيقة العظمى . فالاستقرار هو ألد أعداء جيد ، إذ رائده أن نكون متأهبين دائما لتغيير جديد فى حالتنا .

وفى كتابه (الأغذية الأرضية) نسمع جيد يخاطب (ناتانائيل) ملقيا عليه تعاليمه قائلا : (ناتانائيل : أياك أن تستقر فى مكان ، فمجرد أن تغيرت ظروف هذا المكان وأصبحت موافقة لطبيعتك أو جعلت أنت نفسك موافقا لظروف المكان ، عندئذ لا تبقى لك فائدة تُرجى من وجودك ، فيجب أن تهجره . ليس هناك أخطر عليك من أسرتك ، من غرفتك ، من ماضيك) .

وفى قصة (المتحرر من الأخلاق) نسمع (ميناللك) يقول : (إننى لا أريد أن أتذكر ، فاعتقادى أن فى هذا منعا لوصول المستقبل واعتداءً على الماضى الذى لم يعد لى فيه حق . إننى بنسيانى الكامل

للأمس أجدد كل ساعة من حياتى . إن كونى كنت سعيدا لا يكفينى ، لأننى لا أومن بالأشياء الميتة ، وما كنت عليه وزال عنى الآن هو عندى كأنه لم يكن) .

على أن فكرة جيد عن التحرر المطلق كما رأينا لم تقض على عاطفته الدينية الدفينة . بل لقد أحدث عنده هذا الإيمان القوى بالتحرر وبالاستسلام لكل إحساس يغمرنا نتيجة عكسية ، إذ جعله يترك العنان لإحساسه الدينى يطغى عليه بين وقت وآخر دون أن يحاول كبته ، فنراه يتكلم عن الله والحياة الخالدة بأسلوب متصوف زاهد . فى كتابه (الأغذية الأرضية) ، وهو الكتاب الذى ينفجر فيه بالدعوة إلى التمتع بالحياة الحسية ، يقول : (إنك حيثما تذهب لا تستطيع أن تقابل إلا الله) وأيضاً (ناتاناييل : لا تأمل أن تجد الله إلا فى كل مكان) وفى كتابه (الأغذية الجديدة) Les nouvelles nourritures (١٩٣٥) يقول (يجب أن نفكر فى الله بأقصى ما يمكن من الانتباه واليقظة . . إننى عندما أهجر التفكير فى الخالق إلى التفكير فى المخلوق تنقطع صلة نفسى بالحياة الخالدة وتفقد حيازتها لمملكة الله)

والآن ، أليس من التناقض مع فكرة التحرر الأخلاقى والدعوة إلى التمتع بالحياة أن يغمر جيد أحساس أشد المتدينين إيمانا فيفكر فى الله كل يوم — كما يقول — ولا يستطيع له فراقا ؟

أن جيد يبرر موقفه بفلسفة هى أهم نواحى التجديد فى تفكيره . إنه يفصل بين اللذة plaisir والحب amour أو بعبارة أخرى بين الجسد corps والنفس âme . لذا نراه يبيح من جهة كل مقتضيات الجسد ، كما يبيح من جهة أخرى تحقيق كل مقتضيات النفس فى الالتجاء إلى قوة عليا . ولا شك أن رأى جيد هذا لا يتفق مع أية عقيدة دينية ولكنه — فى صميمه — وحى طابعه الدينى الذى لم يستطع التخلص منه فأراد التوفيق بين إحساسه الدينى ومذهبه الفكرى فى التحرر الأخلاقى .

وفى العبارة الآتية يعترف لنا جيد أن هذه الناحية من تفكيره كانت خلاصاً وتبريراً لما أوقعته فيه مشكلته النفسية . يقول : (أما فيما يتعلق بى فقد قلت مرارا كيف أن الظروف وما تتجه إليه طبيعتى كانت تدعونى إلى التفرقة بين الحب واللذة لدرجة أنه كانت تؤلمنى فكرة المزج بينهما) ثم يقول : (لقد فصلت أنا أيضاً بين اللذة والحب ، بل إن هذا الفصل بين الإثنين قد ظهر لى أنه كان لازما ، فاللذة أكثر نقاءً plus pur والحب أعظم كمالا plus parfait)

يرى جيد أن انطلاقنا وخضوعنا لمطالب أجسادنا إنما هو نوع من الإخلاص والبراءة innocence وأن إجابة الإنسان لنداء طبيعته وغرائزه التى ولدت معه إنما هو خضوع لإرادة الله . وما الفرق عنده بين من يجارى ميوله الغريزية وشهواته البريئة وبين

من يكبح بعضها ألا كالفرق بين من (يأكل كل شيء ومن لا يأكل غير الخضروات) .

ويقول چيد أيضاً : (ليس فى الإنسان شيء غير طاهر) rien n'est impur en soi ، لذا كان ما تفيض به طبيعة الإنسان من ميول وشهوات لا يجب فى نظره أن يحمل غير معنى الطهر والنقاء والإخلاص لأنفسنا ، فيجب أن نطيعها دون اختيار (لأن كل اختيار هو تحديد لحريتنا) .

على أن جيد يشترط لكل عاطفة تحركنا أن تكون مخلصة لكى نطيعها ونجيب نداءها . ففى كتابه (إذا لم تمت البذرة) Si le grain ne meurt (١٩٢٦) نسمعه يقول : (إن لذاتى لا تحجب وراءها فكرة خفية ، ولذا لا ينبغى أن يتبع هذه اللذات أى شعور بالندم). فهو يقصد بذلك أن يقول إن فكرة الحرية والانطلاق إذا استترت وراءها فكرة أو غرض معين خرجت عن دائرة البراءة والإخلاص .

ففى ضوء ما ذكرنا نرى أن فكرة أندريه جيد فكرة مزدوجة مضمونها :

أولا : الناحية الجسدية الحيوانية فى الإنسان ، وهى الناحية البريئة الساذجة .

ثانيا : الناحية المعنوية ، وهى إما الناحية الخاصة بالإحساس الدينى ، وإما الناحية الشيطانية فى الإنسان .

ففكرة جيد هى الفصل بين هاتين الناحيتين اللتين هما فى الواقع حقيقتان من حقائق الطبيعة الإنسانية — الناحية الجسدية والناحية المعنوية — ثم السمو بهما إلى أقصى ما يمكن من الطهر والنقاء، وما السبيل إلى ذلك إلا بنبذ كل مالا أساس له من الحق والصدق، وفى مقدمة ذلك بالطبع كل ما يرغمنا عليه المجتمع ولا يتفق مع المنطق والإخلاص للنفس. ولقد استخدم جيد فى البداية عبقريته كناقد فذ فى تبرير حقه فى الانطلاق والتمتع بالحياة وفى (الحب الذى لا يجرؤ أن يقول اسمه)، على أنه فيما بعد صرف همه إلى العناية الشاملة بكل تقاليد المجتمع وحقائقه الفارغة وأوهامه لكى يعمد بعد ذلك إلى تنقيحها أو هدمها من أساسها. فنراه مثلا يهاجم فكرة الحماية الأدبية، ويطعن فى نظم التربية، ويفضح مظاهر الرياء فى الطبقة البرجوازية، إلى غير ذلك مما يراه من المفاسد الاجتماعية التى تقف حائلا بين الإنسان وبين حريته التامة.

* * *

كانت «فردية» جيد سبباً فى أن يبقى حتى الثامنة والخمسين من عمره بعيداً كل البعد عن الاهتمام بالشئون العامة أو الإيمان بعقيدة سياسية أو اجتماعية على اعتبار أن الإصغاء لأفكار الغير يحد أو يغير من أفكار الإنسان الخاصة التى يجب أن تكون بعيدة عن كل تأثير خارجى. وأندريه جيد فى عزلته السياسية والاجتماعية

كان يخالف تماماً كثيراً من الكتاب الفرنسيين المعاصرين مثل أناتول فرانس وشارل موراس وموريس باريس وشارل بيجوى ورومان رولان وغيرهم، ممن اختلفت مشاربهم فى السياسة والاجتماع.

على أن جيد بعد رحلة إلى الكونغو وأواسط أفريقيا خرج مرة واحدة من دائرته الخاصة إلى دائرة المجتمع الإنسانى بأجمعه، يفكر فى ظروف الحياة فيه بعين تفيض بالرحمة الواسعة والحنان العظيم، حتى إن المرء ليحس بأن جيد قد نسى نفسه ولم يعد يفكر إلا فى الآخرين.

وفى كتابيه (رحلة إلى الكونغو Voyage au Congo) (١٩٢٧) و(العودة من تشاد Le retour du Tchad) (١٩٢٩) نرى جيد يدافع عن الأمم المستعمَرة ويطالب بحق هذه الأمم فى التقدم المطرد فى جميع شئون حياتها، مسفهاً كل استعمار ينتهك حرمة هذه الحقوق المقدسة.

ولكن هل بقى جيد عند هذا الحد من الاعتدال فى تفكيره وهو الذى من دأبه السير إلى أقصى حدود التطرف؟ لا. إذ لم يكد ينقضى وقت يسير حتى رأينا جيد يعلن إيمانه بالاشتراكية التى اعترف بأنه عند اعتناقها كان يجهل صميم نظرياتها. ولا شك أن اعتناق جيد للاشتراكية مخالفة تامة لأسس تفكيره السابق، لأن جيد «الفردى» قد أصبح يؤمن بنظام يقيد مصلحة الفرد فى

سبيل مصلحة المجموع ، وجيد الثائر على أى نظام من نظم التربية على اعتبار أن التربية تقييد وتحديد قد أصبح يؤمن بالمثل العليا الاشتراكية ، وجيد الذى كان ألد عدو للعقيدة الثابتة dogme قد أصبح إيمانه بالاشتراكية تسليم منه بالنظريات الماركسية كنظرية (التفسير المادى للتاريخ) مثلا وغيرها . بيد أننا لا نستطيع أن نغفل أيضاً أن فى الاشتراكية تتحقق معظم أفكار جيد وآماله ، ففيها شرود نهائى من ماضيه الدينى الذى أثقله زمانا طويلا ، وفيها التخلص من عبودية نظام الأسرة الذى طالما حاربه وناضل فى سبيل القضاء عليه ، وفيها أمل جديد فى الوصول إلى ما يسميه جيد (مملكة الله) Le royaume de Dieu أى قتل الجراثيم الخبيثة فى الإنسان بالتخلص من كل أنانية والتحرر من كل تفكير ذاتى ، وهو يرى فيها أيضاً الشفقة الزائدة والتفكير الجدى فى محو الشقاء الإنسانى .

ولقد أحدث انضواء جيد تحت راية الاشتراكية ضجة كبيرة ، وابتهاجا من رجال الفكر اليساريين ، إذ اعتبروا انضمامه إلى صفوفهم فوزاً مبيناً ونصراً عظيما لعقيدتهم ، وذلك نظراً لشهرته فى عالم الفكر والأدب .

وسافر جيد إلى روسيا عام ١٩٣٦ بعد أعلان عقيدته الجديدة وعاد منها ليكتب كتابه (عودة من روسيا) Retour de l'U.R.S.S.

الذى امتدح فيه النظام السوفيتى فيما يختص بحياة الطفولة والشبيبة ونظم تربيتها ، ولكنه انتقد كثيرا من جوانب الحياة فى روسيا ووسائل تطبيق المبادىء الاشتراكية فيها . وسرعان ما خابت فيه آمال من هللوا وطبلوا عند انضوائه للعقيدة الجديدة وعادوا إلى مهاجمته مهاجمة مريرة ، متهمين إياه بأنه لم يستطع بعد أن يتحرر تحررا كليا من « فرديته » السابقة و « بورجوازيته » . فأجاب على هذه الانتقادات بكتاب ثان هو (عودة إلى العودة من روسيا » Retour à mon retour de L'U.R.S.S. يرد فيه على ماوجه إليه من نقد، ويؤكد أنه على عقيدته الجديدة راسخ الإيمان ، وأن ما وجهه إلى النظام فى روسيا من نقد لا ينفى إيمانه بالاشتراكية ، وأن غرضه الوحيد من هذا النقد هو — كشيمته دائما — السعى إلى الكمال المطلق والاحتفاظ باستقلال رأيه .

* * *

لعل مظاهر التقلب والقلق الدائم وعدم الاستقرار التى صاحبت حياة جيد ومؤلفاته عشرات السنين ، والتى كانت موضع نقد الناقدين ، هى أعظم ما يرفعه (كإنسان) ، لأنها نتيجة تغلغل عاطفة الحرية فى دمه إلى حد قل أن يكون له نظير ، فظل طول حياته (حديقة من التردد) — كما سماه أكبر أتباعه الكاتب الفرنسى جاك ريفيير — لا يهدأ له بال ، يدرس الحياة بنواحيها

الفكرية والحسية ، يسافر إلى أقصى البلاد . كل ذلك لكى يصل إلى الحقيقة المنشودة التى يسعى وراءها ، وبرغم عبء ماضيه الدينى الثقيل فقد استطاع أن يحطم أغلاله وينطلق باحثاً منقباً .

إننا حين نحكم على أندريه جيد يجب أن ننظر إلى مجموع شخصيته وتفكيره وأهدافه التحريرية البعيدة المرمى التى تنبض بها عشرات أعماله الخالدة ..... لقد علمنا جيد كيف ننتصر على الخجل المقيت والرهبة البغيضة التى لا معنى لها ... علمنا كيف نكشف دخائل نفوسنا ولا نتركها فى الظلام الدامس لا نعرف كنهها كأن ليس لنا بها صلة ... علمنا كيف نسلط عليها ضوءاً وهاجا نستمده من صميم إرادتنا وشجاعتنا ... علمنا كيف نصرح بكل ما يجيش فى خفايا قلوبنا من النزعات الصارخة ... علمنا كيف ومتى نعرف حقيقة نفوسنا ، ليس بالاستسلام لغرائزنا الحيوانية كما يتهمه أعداؤه ظلما ، بل بأن نساير طبيعتنا مهما كانت بإخلاص عظيم ، سواء ما كان منها خاصاً بالناحية الحيوية أو بالناحية الروحية وأن نكون دائما على أهبة لمواجهة الحياة المتغيرة ومجاراتها على الدوام فى قالب جديد .